مظاهر النبل في سورة القصص
(قصة موسى مع الشيخ الكبير)

د. محمود ناصر زوراو
كلية الإمام الأعظم «رحمه الله» الجامعة
قسم الفقه وأصوله / كركوك

ملخص البحث

إنّ النبل من أبرز الخصال الإنسانية، وأصل من أصول العلاقات الاجتماعية، وللنبل صور منها (الشهامة، الرجولة، نصرة المظلوم، وإكرام الضيف، والالتزام وتحمل المسؤولية،..)، وبما أنّ النبل له هذه الأهمية لذا تجذرت في ثقافة وسلوك الأنبياء ورسالاتهم جميعا، ومنهم (موسى وشعيب) عليهما السلام، وهذه الصفات ليست محصورة على الأنبياء، وإنما يجب أن تنقل إلى ذرياتهم واتباعهم، إذن لا إنسانية ولا ديانة إلاّ بالنبل ومكارم الأخلاق، وإلاّ كانت شعارا وهتافا لا أثر لها في العلاقات الإنسانية .

Abstract:

prominent humanitarian communication, the origin of the assets of social relations, and Lellel images of them (the sharp, ruling, oppressed vulnerability, the samba, the obligation and to carry out responsibility, ...). As the accepted soleness of this importance so far in the culture and behavior of the prophets and their entire peoples, including (Moses and Hisiop), peacefully. These qualities are not confused on the prophets, but must be transferred to their incentives and follow them, So no humanity, none of the none of the neither and the idealisticity of the morality, and not only a logo and should not affect humanitarian relations .

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله أجمعين، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن موضوع النبل هو في غاية الأهمية، وخصوصا في العلاقات الإنسانية، وذلك في كل زمان ومكان، لذا أرتأيت أن اكتب بحثا رصينا فيه بعنوان: (مظاهر النبل في سورة القصص، قصة موسى مع الشيخ الكبير) دراسة تفسيرية تحليلية موضوعية .

إنّ مظاهر النبل في القرآن الكريم كثيرة جدا، وميادينه متعددة ومتنوعة بحيث لا يمكن حصرها في بحث كهذا، أو رسالة أو اطروحة أو كتاب، وتشرفت أن آخذ قطرة من أبحر القرآن الكريم وتناولته في بحثي .

الدراسات السابقة: بحثت في الانترنيت كثيرا وبشكل واسع لم أجد هذه العنوان، لا لمقال ولا كتاب ولا رسالة ولا أطروحة .

ينقسم بحثي على ثلاثة مباحث، تناولت في الأول مفهوم النبل، وتعريفه لغة واصطلاحا وذكرت ألفاظ ذات صلة بالنبل، وكان المبحث الثاني بين يدي السورة، ومنها نبذة مختصرة عن سورة القصص، حتى تكتمل معالم الصورة، وفي الجزء الثاني من المبحث تناولت تفسيرا تحليليا وموضوعيا لآيات المتعلقة بقصة موسى وشعيب عليهما السلام، وفي المبحث الثالث ذكرت مظاهر النبل في قصة موسى، وقصة شعيب، عليهما السلام، وقفت على أقوال المفسرين تحليلا ونقدا ومناقشة ومقارنة وردا، مع مراعاة منزلة مشايخنا عموما، وتناولت في الجزء الأول من المبحث الثالث مظاهر النبل في شخصية موسى، وفي الجزء الثاني تناولت مظاهر النبل في شخصية شعيب وبناته .

إنّ هذا البحث جهود إنسان، ومن طبعه الخطأ والنسيان والسهو، وما ينتجه يبقى ناقصا بنقصه وتقصيره الفطري، لذلك فما كان من صواب وخير في بحثي هذا فهو من الله تعالى وتوفيقه وفضله، وما كان من خطأ أو نسيان فيه فهو من نفسي ومن الشيطان، فاستغفره وأتوب إليه، وأسأل الله تعالى أن يسددنا ويوفقنا إلى كنوز القرآن الكريم، ويشرفنا بهذه المشكاة ، وتنور بها عقولنا وأفهامنا وتزين سلوكنا، سبحان ربك رب العزة عما يصفون والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

المبحث الأول

مفهوم النبل

- **المطلب الأول: تعريف النبل لغة واصطلاحا:**

أولا: تعريف النبل لغة: النابل: الحاذق بالأمر، النبل: النبالة والفضل، وأيضا هو: الكبار[١]، والنبل في الفضل والفضيلة[٢]، النبل: الذكاء والنجابة، والنبيلة الفضيلة، والنبالة وهي أعم تجري مجرى النبل وتكون مصدرا للشئ النبيل، والنبل والنبالة: الفضل، والنبل: العاقل والحاذق وهو نبيل الرأي، أي: جيده، وقيل: نبيل: أي رفيق باصلاح عظام الامور[٣] .

تبين مما سبق أن معنى النبل لغة هو: (الفضل والذكاء والشرف والرأي والنجابة والحلم و..) .

ثانيا: تعريف النبل اصطلاحا: هناك العديد من التعريفات نذكر أهمها:

١-النبل: «هو ما يرتفع به الإنسان من الرواء، ومن المنظر ومن الأخلاق والأفعال، ومما يختص به من ذلك في نفسه دون ما يضاف»[٤] .

٢- النبل: «هو خلق حميد يتحلى صاحبه بالذكاء والنجابة في ذاته، والفضل والرفق في تعامله مع الناس، مع حذق في الرأي والعمل»[٥] .

٣- « يروى أن معاوية سأل ما النبل؟ فقال: الحلم عند الغضب والعفو عند المقدرة»[٦] .

ذكرت هذه التعريفات الاصطلاحية للنبل، والذي تبين لي أنّ التعريف الأول هو التعريف الجامع والمانع، لما يحمله من المعنى العام والشامل لهذه الكلمة .

- **المطلب الثاني: ألفاظ ذات صلة.**

هناك العديد من ألفاظ ذات صلة وثيقة بالنبل، نذكر أهمها:

---

(١) ينظر: الصحاح، الجوهري، ٢: ١٩٠

(٢) ينظر: العين، الفراهيدي، ٢: ١٨٨ .

(٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١: ٦٤٠ .

(٤) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٦٢ .

(٥) نضرة النعيم، صالح بن عبد الله بن حميد، ٨: ٣٤٧٠ .

(٦) تاج العروس، الزَّبيدي، ١: ٧٥٢٩ .

١- الفضيلة: « هي صفات الكمال من العلم ونحوه بأنها لازمة دائمة»[١].

٢- الذكاء: الذكاء لغة: شدة قوة النفس معدة لاكتساب الاراء، واصطلاحا: قد يستعمل في الفطانة، وقيل: هو قوة الحدس، والحدس: هو الذي يتميز به عمل الفكر، وقيل الذكاء هو: سرعة الفهم والفطانة [٢] .

٣- الشرف: هو المجد والعلو والمنزلة الرفيعة، والشريف: نبيل عالي المنزلة، سامي المكانة، رفيع الدرجة [٣] .

٤- النجابة:نجب الشخص:نبه، وفاق أقرانه ذكاء، وكان كريم الأصل نبيلا، وحمد في قوله أو فعله[٤].

٥- الحِلْمُ: هو الطمأنينة عند سور الغضب، وقيل تأخير مكافأة الظالم، وقيل الحلم: هو الأناة والسكون مع القدرة والقوة [٥] .

٦- الصلاح: ضد الفساد، وهو سلوك طريق الهدى، وقيل: هو استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل، والصالح: هو المستقيم الحال في نفسه، القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد [٦] .

٧- الرفق: هو التوسط واللطافة في الأمر [٧] .

٨- العفو: هو ترك المآخذة بالذنب [٨] .

إنّ هذه الألفاظ وغيرها القريبة منها من حيث المعنى، لها دلالات متعددة، وكلها تصب في معنى النبل، إذن من الممكن أن يقال: إنّ معنى النبل تجمع كل معاني حسن الخلق التي تم ذكرها آنفا .

(١) الكليات، الكفوي، باب: الفاء، ١: ٦٨٣ .

(٢) ينظر: الكليات، الكفوي، باب: فصل الذال، ١: ٤٥٦ . ومعجم اللغة العربية المعاصرة، (١٩٦٩) ، باب: ذ ك و، ١: ٨١٧ .

(٣) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار، (٢٨٠٦)، باب: شرف، ٢: ١١٩٠ .

(٤) ينظر: المصدر نفسه، (٤٤٠٥)، باب: ن ج ب، ٣: ٢١٦٩ .

(٥) ينظر: التعريفات، الجرجاني، ص ٩٨ . والكليات، الكفوي، ص ٤٠٠ .

(٦) ينظر: الكليات، الكفوي، ص ٥٦١ .

(٧) المصدر نفسه، ص ٤٨٠ .

(٨) مجمع مقاليد العلوم، السيوطي، ١: ٢٠٣ .

المبحث الثاني

بين يدي سورة القصص

- **المطلب الأول: نبذة عن سورة القصص**

أولا: إسمها: «سميت سورة القصص لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه، وخذلانه لأعدائه»[1].

ثانيا: نزولها: إختلف المفسرون في نزول السورة، قيل: « مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء، وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية نزلت بين مكة والمدينة، وقيل: نزلت بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ، وهي ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القَصَص الآية ٨٥] ، وقال مقاتل: فيها من المدني الآيات (٥٢ - ٥٥)، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٥٥﴾ [القَصَص من الآية ٥٢ الى الآية ٥٥] ، وآياتها ثمان وثمانون آية، ونزلت بعد سورة النمل»[2] ، وقيل: إنها مكية [3] .

ثالثا: محور السورة:» محور السورة الكريمة يدور حول فكر الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن، وجند الشيطان، وقد ساقت قصتين:

١- قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون، فذبح أبناء بني إسرائيل، واستحيا نسائهم، وتعالى على الله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ [القَصَص الآية ٣٨] .

٢- قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في (قارون مع قومه)، وكلا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة الدنيا، سواء بالمال أو الجاه أو السلطان»[4] .

---

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ٢: ٤٢٤ .

(٢) ينظر: الكشاف، الزمخشري، ٤: ٤٨١ . والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣: ٢٤٧ .

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦: ٢٢٠ .

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني، ٢: ٤٢٤ .

نزلت هذه السورة على النبي ﷺ والمسلمون قلة مستضعفة، والمشركون حولهم كثرة متجبرة طاغية شرسة قوية، فيها يبين الله تعالى سننه للنبي واتباعه من المؤمنين، وهي أن ميزان القوة في هذا الوجود هو عند الله تعالى دون غيره، ومنطق الإيمان هو المحك للنصر والهزيمة والفوز والخسارة في الحياة الدنيا، وليس كما يظن البعض المال والجاه والعدد والعدة، ثم يذكر الله تعالى نموذجين واضحين ممن اغتروا بأنفسهم وجهلوا سنن النصر والفلاح الحقيقي وهما فرعون وقارون، فالهلاك والفناء مصير كل من جهل التاريخ، وسنن الله تعالى في تدافع الحضارات والأمم، إذن البقاء والقوة الحقيقية هي قوة الله تعالى وليس لأحد أن الخروج عليها، ومقياس القوة والمنزلة عند الله تعالى هو اتباع الحق والإيمان والعبودية والطاعة له وحده دون غيره، وكيف لا وهو يقول جل وعلا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأَعْرَاف الآية ٥٤] ، ومصير الخلق تحددها هذه السنة الإلهية الأزلية، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القَلَم من الآية ٣٥ الى الآية ٣٦] ، ثم تذكر السورة قصة موسى وشعيب نموذجا للإيمان والهداية الربانية ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة، وأن المؤمن في جميع أحواله يعيش في معية الله تعالى، ويستعين به ويتوكل عليه ويحسن الظن به، وهو دائم الرجاء والتواصل معه، فكانت النتيجة أن هدى الله موسى إلى طريق النجاة والصلاح والخير والنبوة، وخلاص قومه على يديه من جبروت فرعون واتباعه، وتنتهي السورة بوعد من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، وهو مطارد من مكة من قبل المشركين، بأنّ الله الذي كلفه هذه الرسالة المباركة لرادّه إلى بلده، وأنه ينصره على أعدائه كما عاد موسى إلى بلده، وانتصر على فرعون واتباعه، بعد أن خرج منه طريدا خائفا، وانقذ قومه من بطش فرعون وكانت نهايته على يديه .

وكما يؤكد الله تعالى على نبينا محمد ﷺ بأن يثبت على التوحيد وعبادة الله الواحدة، واتباع الحق والهداية، ويبين له ولأمته أيضا بأنّ الله باقٍ وما دونه هالك لا محال، وهو وحده الحاكم في الدنيا والآخرة، فإنه يقضي بين عباده، ويكون الجزاء من جنس العمل، فمن وجد خيرا فاليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه وإليه مآلات الأمور ومصير الخلائق [1].

- **المطلب الثاني: تفسير آياتٍ من سورة القصص(الآيات ٢٢ - ٢٩)**

إنّ موسى عليه السلام تربى في بيت فرعون تربية عز ونعيم، ثم خرج متوجها تلقاء(مدين) فهو خروج عن سلطة فرعون ومملكته، ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القَصَص الآية ٢٢]، المفسرون اختلفوا في ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢﴾ [القَصَص الآية ٢٢]، قيل: قصد السبيل إلى مدين، وقيل: هذا دعاء فيه التجاء إلى الله تعالى لطلب الهداية، وذُكر أنّ الله قيض له ملَكا لأنه قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢١﴾

(١) ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥: ٢٦٧٥ .

[القَصَص الآية ٢١]، فسدده الطريق إلى مدين وعرفه إياه[١]، وقيل: هو دعاء وتوكل على الله تعالى وحسن ظن به[٢] .

يمكننا أن نجمع كلام المفسرين جميعهم، وذلك بقولنا: أن كلام موسى عليه السلام هو دعاء وتوكل على الله تعالى وحسن ظن به، من أنه يستجيب له، ولن يتركه كي يهلك، وهذا يدلنا إلى أمور في غاية الأهمية في حياتنا اليومية، إن العبد الصالح لابد أن يأخذ بجميع الأسباب في قضاء حوائجه ثم يتوكل على الله تعالى، لأن الأسباب مهما كانت كثيرة وقوية لا تأتي بوحدها للنتيجة إلاّ إذا اقترنتْ بحُسنِ التوكلِ على الله تعالى وحُسنِ الظن به، وهذا من أبجديات الأدب مع الله تعالى، ومتقلبات حياة الدنيا، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القَصَص الآية ٢٣] ، أي: ولما وصل إلى مدين وورد ماءها، وكان لها بئر تَرده رعاء الشاء، ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [القَصَص الآية ٢٣] أي: جماعة[٣]، ويناسب الغريب إذا جاء ديار قوم أن يقصد الماء لأنه مجتمع الناس فهنالك يتعرف لمن يصاحبه ويضيفه[٤]، (أمة) أي: جماعة كثيرة عالون غالبون على الماء (يسقون) أي: مواشيهم، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ﴾ [القَصَص الآية ٢٣] في مكان أسفل من مكانهم، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمة ﴿تَذُودَانِۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٣] أي: الذود: هو الكف والدفع، والمنع، والطرد، والحبس، قال ابن عباس: تذودان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء، لعجزهما عن مزاحمة الرجال، وفيه بخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما[٥]، ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٣] قيل: الخطبُ إنّما هو في مصابٍ، أو مضطهدٍ، أو من يشفق عليه، فكأنه بالجملة في شر، قوله تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القَصَص الآية ٢٣] فأخبرتاه بخبرهما وأن أباهما شيخ كبير فالمعنى: لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمه، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأقوياء، وأن عادتهما التأني حتى يصدر الناس عن الماء ويخلى، وحينئذ تردان وعندما أراد موسى أن يسقي لهما زحم الناس، وغلبهم على الماء، حتى سقى لهما الغنم، فعن هذا الغلب وصفته إحداهما بالقوة، وقيل: كان على فوهة البئر حجر لا يرفعه إلا سبعة أو عشرة رجال، ورفعه وسقى لهما [٦] .

---

(١) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ١٩: ٥٤٩- ٥٥٠. ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي: ٦: ١٩٩ . ومفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧١ . والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦: ١٩٩

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤: ٤٥٢ .

(٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣: ٢٦٨. وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦: ٢٢٦ . وتيسير الكريم الرحمن، السعدي، ١: ٦١٤ .

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٤ .

(٥) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤:٤٥ . ومفاتيح الغيب، الرازي ، ١٢:٧١ . والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣: ٢٦٨ .

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣: ٢٦٩ . وزاد المسير، ابن الجوزي، ٣: ٢٧٠ .

أختلف المفسرون في الشيخ الكبير، هل هو النبي شعيب عليه السلام أم غيره، فقد قيل: أنه بيرون ابن اخي شعيب، وقيل: أنه رجل مسلم على دين شعيب، ولكن جمهور المفسرين يقولون: أنه النبي شعيب وهو المشهور في كتب التفاسير، وقوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القَصَص الآية ٢٤] فسقى موسى للمرأتين ماشيتهما، ثم تولى إلى ظل شجرة، وذُكر أنّها شجرة سَمُرة[١] وقيل:سُمرة[٢]، قوله تعالى: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص الآية ٢٤] ، فقير: أي محتاج، قيل: إنه رفع صوته حتى يسمع المرأتين، وذلك طلبا للطعام، ذهب جمهور المفسرين على أنه الجوع[٣]، ومن المفسرين من ذهب منحى آخر، فقد قيل: إنه عليه السلام لما بقي معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو والحجر العظيم فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام أليس أنه عليه السلام قال: {لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي}[٤] ؟ ، وقال: أما رفع الصوت بذلك لإسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى عليه السلام ألبتة، فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى، وهناك في الآية وجه آخر: قال رب إني بسبب ما أنزلت إليّ من خير الدين فقير في الدنيا، لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، فقال ذلك رضى بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا التأويل أليق بموسى عليه السلام[٥]، وقيل: إنه سأل الزيادة في العلم والحكمة[٦]، قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القَصَص الآية ٢٥] ، فجاءت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما تمشي على استحياء من موسى قائلة ويدها على وجهها، وقد سترت وجهها بثوبها[٧] ، والمعنى: إنها مستحيية في مشيها، غير متبخترة ولا متثنية ولا مظهرة زينة، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القَصَص الآية ٢٥] يعني أنها على الاستحياء، قالت هذا القول لأن الكريم إذا دعا غيره إلى الضيافة يستحيي لا سيما المرأة، وبينت له الغرض من دعوته مبادرة بالإكرام والجزاء، فقام وجعلها تتبعه، فذلك سبب وصفها له بالأمانة[٨] ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القَصَص الآية ٢٥] كانت العوائد أن يفاتح

---

(١) السُمرة: شجرة تُشبه أن تكون للونها سميت بذلك، (مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، ص ٤٢٥).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،الطبري، ١٩: ٥٥٦ .

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،الطبري، ١٩: ٥٥٦ . والبغوي، ٦: ٢٠١ . وزاد المسير، ٣: ٢٧١

(٤) مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل، مسند أبي هريرة، رقم الحديث (٩٠٤٩)، ٢: ٣٨٩ ، قال شعيب الأرناؤوط: حديث صحيح .

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧٣ .

(٦) البحر المحيط، أبو حيان، ٩: ١٣ .

(٧) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري، ١٩: ٥٥٨ .

(٨) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧٣ . والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣: ٢٧٠ . والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٧ .

الضيف بالسؤال عن حاله ومقدمه، فلذلك قصّ موسى قصة خروجه ومجيئه على شعيب ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥﴾ [القَصَص الآية ٢٥] فطمأنه شعيب بأن يزيل عن نفسه الخوف فأصبح في مأمن من أن يناله بطش فرعون، لأن بلاد (مدين) تابعة لملك الكنعانيين، وهم أهل بأس ونجدة ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القَصَص الآية ٢٦] أي: استأجره فهو قوي أمين، فإن خير من استاجر مستأجر القوي الأمين[١]، وروي أن شعيباً دخلته الغيرة فقال لها ما سر علمها بقوته وأمانته؟ قالت: أما قوته فأنه كشف الصخرة، وأما أمانته فإنه خلّفني خلف ظهره حين مشى، القوي في بدنه الأمين في عفافه[٢]، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٧] الحجج: أسم جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة، مشتقة من اسم الحج لأن الحجَّ يقع كل سنة وموسم الحج يقع في آخر شهر من السنة العربية على أن تثيبني من تزويجها رعي ماشيتي ثماني حِجَج، فإن أتممت الثماني الحجج عشرا فإحسان من عندك، وليس مما اشترطته عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ [القَصَص الآية ٢٧] باشتراط الثماني الحِجَج عَشْرا عليك ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القَصَص الآية ٢٧] في الوفاء بما قلت لك[٣]، ويريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب[٤]، قَالَ موسى لأبي المرأتين ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٨] أي هذا الذي قلتَ من أنك تزوّجني أحدى ابنتيك على أن آجرك ثماني حجَج، واجب بيني وبينك على كل واحد منا الوفاء لصاحبه بما أوجب له على نفسه وقوله: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ [القَصَص الآية ٢٨] يقول: أيّ الأجلين من الثماني الحجج والعشر الحجَج قضيت، ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٨] يقول: فليس لك أن تعتدي عليّ، فتطالبني بأكثر منه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القَصَص الآية ٢٨] ، أي: شاهد حفيظ، قيل: إن هذا القول من أبي المرأتين[٥]، ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ [القَصَص الآية ٢٩] وذكر أن الذي وفّاه من الأجلين، أتمهما وأكملهما، وذلك العشر الحجج، وفي طريق رجوعه الى مصر، أبصر من الجهة التي تلي الطور نارا فذهب عسى أن يأتي بجذوة منها، والجذوة: هي العود الغليظ آنس: أبصر وأحسّ، قال موسى لأهله: تَمهَّلُوا وانتظروا: إنّي أبصرت نارا ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ [القَصَص

(١) ينظر: المصدر نفسه .

(٢) ينظر: النكت والعيون، الماوردي، ٣: ٢٧١ . وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤: ٤٥٣ .

(٣) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري، ١٩: ٥٦٥ . والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٩ .

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧٥ . وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤: ٤٥٣ . وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦: ٢٣٠ .

(٥) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري، ١٩: ٥٦٥ . ومفاتيح الغيب، الرازي: ١٢: ٧٦ . وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤: ٤٥٤ . والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٩ .

الآية ٢٩] يعني من النار﴿بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القَصَص الآية ٢٩] يقول: أو آتيكم بقطعة غليظة من الحطب فيها النار﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩﴾ [القَصَص الآية ٢٩] قول: لعلكم تسخنون بها من البرد، وكان في شتاء، فلما أتاها نادى الله موسى من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة منه من الشجرة ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القَصَص الآية ٣٠].

المبحث الثالث

مظاهر النبل في قصة موسى مع الشيخ الكبير

- **المطلب الأول: مظاهر النبل في شخصية موسى**

إنّ موسى عليه السلام بعد أن قتل رجلا من الأقباط في مصر أصبح حياته في خطر، وهو مطارد من اتباع فرعون ورجاله، فقرر أن يترك مصر وهو خائف، وسأل الله تعالى أن ينجيه من ظلم فرعون وبطشه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القَصَص الآية ٢١] ، أي: ربّ نجني من هؤلاء القوم الكافرين، الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بك[١]، وبعد أن خرج من مصر سالما سأل الله تعالى أن يهديه سبيل الرشاد والخير والصلاح، ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص الآية ٢٢] ، قيل: هذا توكلا على الله وحسن ظن به[٢]، هذه هجرة نبوية تشبه هجرة إبراهيم عليه السلام، إذ قال ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العَنكَبُوت الآية ٢٦] ، وقد ألهم الله تعالى موسى عليه السلام أن يقصد بلاد مدين، إذ يجد فيها نبيا يبصره بآداب النبوة، ولم يكن موسى يعرف أين يتجه، بدليل قوله ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القَصَص الآية ٢٢] ، قال بعضهم: إنه خرج وما قصد مدين ولكنه سلّم نفسه إلى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى إلى مدين، وهذا قول ابن عباس، وقال آخرون: لما خرج قصد مدين، لأنه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة، لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام [٣] .

إنّ حياة الأنبياء تزهو بأروع صور العبودية والتوكل وحسن الظن بالله تعالى، وبأحسن وأجمل نماذج حسن الخلق والفضيلة والنبل، وكل ذلك في كنف الله تعالى، وثمار طاعته والثبات على دينه والتشبث بهديه سبحانه وتعالى، فهم يعيشون عين المعية الإلهية، أينما حلوا أو ارتحلوا، وفي أي ظرف كانوا، فهم مقبلون ومتصلون بربهم على الدوام، فالهداية الربانية هي منطلق كل خير، وأبرزها النبل، ومن المؤكد أن الأنبياء هم سادة النبلاء، على مر تأريخ البشرية، من آدمها إلى خاتمها، وما النبل إلا إنعكاسات لتلك اللمسات

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الطبري، ١٩: ٥٤٩ .
(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤: ٤٥٢ .
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧١ .

الربانية، من نور الهداية والايمان بالله تعالى في الدنيا وجزاء الآخرة أكثر وأبقى لقوم يؤمنون .

ولمّا وصل موسى عليه السلام ماء مدين، لاحظ من سرعة بداهته المرأتين اللتين تمنعان غنمهما من الاقتراب من هذا الجمع الغفير من الرجال، وهما نائيتان عنهم، ولا تستطيعان السقي مع الناس، وهما مشغولتان بالذود والمنع لغنمهما، وأحسّ موسى عليه السلام في نفسه أن هنالك معضلة في أمر هاتين المرأتين، فبادر فور ملاحظته للمرأتين إلى السؤال عن معضلتهما، ومعرفة علة ذودهما للغنم، وقال لهما ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٣] أي: ما شأنكما تمنعان غنمكما ولا تسقيانه، والخطب كما مر ذكره، يستخدم للشدة والضيق إن لم يكن الدافع إنساني ومروءة ونبل، إذن فما الدافع لرجل غريب يتدخل في شأن أمراتين غريبتين عنه، وهما في وسط قومهما وفي بلديهما ؟ بعد أن سمع منها إجابتهما وعلى الفور ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القَصَص الآية ٢٤] ، لهما(فاء التعقيب) مباشرة دون أي تفكير أو تردد أو تأخير، والدافع لذلك هو: لأن معاني النبل من الشهامة والمروءة حاضرة وملازمة له، فلا داعي كي يحضرها ويهيئها بهذا الدافع أو ذاك (إن الفضيلة بطبيعتها عاملة محركة، تستحثنا أن نعمل كيما نجعل واقعا ملموسا) [١]، ثم آوى إلى ظل شجرة، لأن ذلك كان في يوم حر وتنفس السعداء بعد سفر شاق وخوف وجوع، وأيضا تذوق لذة عمل الإحسان ونصرة المظلوم والمهضوم والضعيف، والقوة هي من عطاء الله تعالى، وتذكّر موسى عليه السلام النعم السابقات، من خلاصه من الذبح عند الولادة، وتربيته في بيت العزّ عند فرعون، وإرضاع والدته له، وإيتائه الحكم والعلم ونجاته من تبعات قتل القبطي، ووصوله إلى مدين، البعيد عن ملك فرعون وسطوته، ويتيقن كل اليقين بأنّ كل ذلك من فضل الله تعالى وحده، لذا شكر الله تعالى وأثنى عليه وسأل المزيد والمزيد من الخير والنعم، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص الآية ٢٤] ، فقير: أي محتاج للمزيد والمزيد[٢]، ثناء وشكر وحسن ظن بالله تعالى، ومن الممكن تلمس بعض الحاجات في هذه المرحلة، وهو في الغربة، وهذا ما تم الإشارة إليها في بعض كتب التفاسير[٣]، وهي المأوى، والطعام، والأنس أو الزواج، هذا الشكر والثناء، بل وحتى السؤال من الله وحده، إنما ذلك كله من الصلاح والعبودية، ومن الصفات البارزة عند النبلاء، وأبرزها الوفاء للمنعم، وهذه النفوس تتربى بمشيئة الله تعالى لمهمات صعاب، علما أن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه بدعائه يريد الطعام أو المال، وأنه أسمع المرأتين بكلامه هذا، ولكن هذا القول بعيد عن رجل بنبل موسى عليه السلام، لأنه عاونهما في السقي دون قيد أو شرط أو طلب أو عرض، والأمر الثاني،

(١) دستور الأخلاق في القرآن، د. عبدا الله دراز، ٢: ٢٢ .

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣: ٢٧٠ . والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٦ .

(٣) ينظر: والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٦ .

من كان بنبله كيف يتنازل لطعام عن هذا الموقف النبيل؟ وهناك أراء تخالف قول جمهور المفسرين، وهي الأقرب إلى شخصية الأنبياء والنبلاء، فقد قيل[١]: أما رفع الصوت لإسماع المرأتين وطلب الطعام فذاك لا يليق بموسى ألبتة، ولعله قال ذلك في نفسه مع ربه، وذُكر وجه آخر لكلام موسى: كأنه قال: رب إني بسبب ما أنزلت إليّ من خير الدين صرت فقيرا في الدنيا، لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة، فقال ذلك رضى بهذا البدل وفرحا به، وشكرا له وهذا التأويل أليق بصفات موسى وأخلاقه، وكما قيل أيضا: لا يدفعه لذلك إلا رأفة بهما وغوثا لهما[٢]، وقيل أيضا: أنه طلب الزيادة في العلم والحكمة[٣]، وأنه ربط أسباب النبل بالله تعالى، ولم يدعيه لنفسه، كما فعل (قارون) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القَصَص الآية ٧٨] ، وهذه الخصلة أيضا من النبل بل هي أصل النبل وموردِه، ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القَصَص الآية ٢٥] الفاء تعقيبية، بعد الدعاء مباشرة، استجابة سريعة للدعاء من الله تعالى، فقام موسى وذهب مع المرأة وجعلها تتبعه وذلك من نبله، كي لا ينظر إليها من الخلف، وذلك أفضل لنفسيهما، وأيضا أن نظرة الناس لا ترحم وتراقب المارة، وجاء في حديث صحيح أن النبي ﷺ قال: «...فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه...»[٤] .

فوصل موسى إلى بيت الشيخ العجوز، وبعد مفاتحته عن سبب قدومه إلى مدين، فقصّ على شعيب قصته، ومن نبل خصال موسى عليه السلام أنه رفض أكل الطعام كمقابل أو أجرة سقيه لغنمهم، وما تناول الطعام إلا بعد أن قال شعيب إنّما هو طبعنا إطعام الطعام وإكرام الضيف، وهذا ما يفند قول جمهور المفسرين في قولهم أنه أراد الطعام، وبعد شهادة إحدى المرأتين لموسى بالقوة والأمانة، واقتراحها لأبيها كي يستأجره لرعي الغنم، عرض شعيب عليه الزواج مقابل أجرة رعي الغنم له ثمان أو عشر سنين، فقبل موسى العرض، وتعهد بالوفاء بالعهد والاتفاق بينهما، والإلزام بالعهود والعقود والوعود إنما من خصال النبلاء ولا سيما الأنبياء منهم، وقد أشار كتب التفاسير[٥]، إلى شخصية موسى عليه السلام التي تميزت بالقوة وفضائل الأعمال، ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القَصَص الآية ٢٩] ، هذا تحقيق الوفاء بالعهد والتزام موسى بما عاقد عليه مع شعيب، وما كان غير ذلك منتظرا من موسى عليه السلام، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القَصَص الآية ٢٩] ، هذه خصال الرجل القوّام، إنّما يكون حارساً أميناً لزوجته وأهله، ويمنع عنهم الأخطار، ويخوض

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧٣ .
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٧٦ .
(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ٩: ١٣ .
(٤) صحيح البخاري، البخاري، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، رقم الحديث (٥٢) ، ١:٢٨ .
(٥) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧٥ . والتحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٨٢ .

المخاطر كي يخدمهم ويقيهم المهالك، لذا أجلس أهله، وذهب باتجاه النار التي أبصرها، كي يأتي بعود منها في هذه الليلة الباردة يتدفؤن بها ويطعمون .

إنّ هذه الخصال هي ميزة الأنبياء، خالدة على مدى الأزمان والاجيال، وهي صفحات مليئة بالنبل والإحسان ومكارم الأخلاق، ولكن هذا لا يعني أن الفضيلة والنبل منحصرة في الأنبياء دون غيرهم، فهي تتجدد وتتكرر في اتباع الأنبياء إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى وفضله ومنته .

- **المطلب الثاني: مظاهر النبل في شخصية الشيخ الكبير**

إنّ الشيخ الكبير على قول جمهور المفسرين أنه كان شعيب النبي عليه السلام ، بدليل أن هذه الآية ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأَعۡرَاف الآية ٨٥] ذكرت في ثلاث سور من القرآن الكريم(الأعراف:٨٥، وهود:٨٤، والعنكبوت: ٣٦) وهذا يتكرر في هذه السور الثلاث، إذن من المؤكد بأنه نبي من أنبياء الله تعالى، ولكن شاخ وعجز عند قدوم موسى إلى مدين لكبر سنه، لذا أوكل رعاية الغنم وتدبير شؤونها لبنتيه (وكان شعيب عليه السلام كثير المال، ثم قد ندَّ طمعه في زيادة الأجر من موسى (عليه السلام) فإن أتممت عشرا فمن عندك)[1]، وهذا من منطلق أن استثمار المال من ضروريات الحياة، وهو من الحكمة، وأيضا من خلال غوصنا في تفاصيل القصة، تبين جليا اللمسات التربوية النبوية الفاضلة على سلوك بنتيه، أليس ذلك من النبل؟ حيث نرى أنهما تنعزلان عن الرجال، وتأبيان الاختلاط بهم شرفا وسموا ورفعة في الأخلاق، وتحبسان الغنم عنهم، ولا تخضعان بالقول رعونة أو خنوعة، مقابل السقي لغنمهم، وإتخذن التأني والتأخر عادة لهن حتى ينتهي الرعاء من السقي، ومن ثم تسقيان وبذلك تتأخران عن أبيهما كل يوم، إلا اليوم الذي التقيا فيه بموسى عليه السلام، فهاتين المرأتين في غاية النبل، بحفظهن لشرفهن وأخلاقهن ودينهن، وهناك جانب آخر من شخصيتهن، وهو: إنّ الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام و إحدى المرأتين إنّما كانت بكلمات موجزة جامعة ومانعة، وذلك من كلا الطرفين أقصر الجمل وهي معبرة واضحة وبليغة غاية البلاغة، ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القَصَص الآية ٢٣] ، نلاحظ إن لم يكن أدبهن وأخلاقهن موازية لمستوى أخلاق موسى عليه السلام فهي مقاربة لها، ونعم التربية يا شعيب النبي عليك من الله أفضل الصلاة والسلام وعلى نبينا وجميع أنبياء الله تعالى، سؤال وجواب موجزان، من دون إطالة الوقوف أمام أنظار الأمة من الناس، لرجل غريب يقف مع بنتي النبي شعيب، فياترى عما يتحدثون؟ أسئلة تطرح نفسها على أذهان القوم، وكل يجيب عنه ويشيعه حسب مزاجه ومروءته، ولو كانت لديهم مروءة لبادر أحدهم لمعونة المرأتين منذ زمن، وحاجتهن تتكرر أمام أعينهم مرارا كل يوم، فماذا تنتظر من هؤلاء القوم؟

---

(١) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص ١٥٧ .

وبعد أن سقا لهما رجعتا إلى أبيهما مبكرا هذا اليوم فاستغرب شعيب عليه السلام، لأنه يقظ فطن مترقب، وسأل عن سبب ذلك، فاخبرتاه بما حدث، ومن خلال ذلك أخبرتاه بأنه غريب وليس من مدين، وأنه ذو أخلاق رفيعة وقوة، فبادر فورا بضيافته (فجاءته) (فاء التعقيب) دليل على سرعة استجابة الله تعالى لدعاء موسى كما ذكرنا، وسرعة مبادرة شعيب لدعوة موسى إلى بيته وإكرامه، وربما كانت هذه المبادرة من شعيب أمر من الوحي كما ذكر بعض المفسرين، أيا كانت الأسباب فإنّ ردّ الجميل والإحسان بالإحسان إنّما هو من قبيل النبل، أما مسألة عرض شعيب أبنته على موسى، بعد أن سمع قصته وسمع شهادة إحدى بنتيه لقوته وأمانته، وذلك مقابل أجرة مرت ذكرها ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٧] ، فقد ذكر بعض المفسرين هذه الإشكالية التي قد تعترضها بعض العقول والنفوس، وقالوا: هذه سنة قائمة، عرض صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل، وعرض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان وعرضت موهوبة نفسها على النبي ﷺ، كما فعلت أمّنا خديجة رضي الله عنها، لذا من الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداء بالسلف الصالح، ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ [القَصَص الآية ٢٧] أي: فإتمامه من عندك تفضلا لا من عندي إلزاما عليك[١]، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ [القَصَص الآية ٢٧] هذا قول شعيب لموسى، يقول: لا أريد أن أشق عليك في الرعي ولكني أساهلك فيها وأسامحك بقدر الإمكان، ولا أكلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام، آخذين بالأسمح في معاملات الناس ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القَصَص الآية ٢٧] أي: حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة[٢]، وهذا ليس من تزكية النفس المنهي عنه، وما قصد به قائله الفخر والتمدح، فأما كان لغرض في الدين أو المعاملة، فذلك حاصل لداع حسن[٣] ، كما قال يوسف عليه السلام، ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [يُوسُف الآية ٥٥] .

هذه صور من نبل الأنبياء، وهي قطرة من بحر الجود الرباني على الإنسانية، وإنّ هذه الأخلاق الفاضلة التي ذكرناه من شخصية موسى والشيخ الكبير من تربية بنتيه ومصاهرة لموسى هي من صور النبل، ومن أخلاق الأنبياء ونوعية تربيتهم، وهي ليست محصورة عندهم ولا قاصرة عليهم، لأن الأنبياء جاءوا كنماذج حية لجميع النّاس، وذلك لتطبيق الرسالات السماوية (عبادات، معاملات، أخلاق) ولتطبيقها فيما بعد من قبل أقوامهم، ولأن الإيمان هو منظومة متكاملة مترابطة، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤: ٤٥٣ .
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢: ٧٥ .
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٠: ٣٨١ .

[العَنكَبُوت الآية ٤٥] ، وكما جاء في حديث صحيح عن النبي ﷺ قال: «الإيمان سبعون أو اثنان وسبعون بابا أرفعه لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبة من الإيمان»[١]، هذه هي منازل الإيمان ودرجاته، (حين نتدبر في حقيقة الإيمان نجده يستلزم في درجاته المرتقبة كل الفضائل الإنسانية، لأن الله الذي هو الحقيقة الكبرى التي ترتبط بها جميع أركان الإيمان وفروعه، يأمر بكل الفضائل)[٢]، وهؤلاء معلمو البشرية كل خير عليهم أفضل الصلاة والسلام، وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ .

(١) صحيح ابن حبان، ابن حبان، الكتاب: الإيمان، الباب: أمور، رقم الحديث (٩)، ١ : ١٢ . صححه الالباني، وقال شعيب الارناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري .
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، ١: ٢٤ .

الخاتمة

إنّ النبل من الخصائص ومميزات الإنسانية البارزة، لذا اتخذت منه محورا لبحثي،ومن خلاله توصلت إلى نتائج أهمها:

١- إنّ النبل منظومة أخلاق لذا فهي تشمل جميع مكارم الأخلاق والخصال الإنسانية السامية.

٢- إنّ القوة والأمانة هما من أبرز الصور الإنسانية النبيلة الذي تمتع بهما موسى عليه السلام، وهما صفتان أساسيتان في الشخصية القيادية والمسؤولة التي تتصدر لحمل الأمانات والرسالات .

٣- تمتع الشيخ الكبير بصفات أبوية نادرة أهمها (الحنكة، والذكاء، والفطانة) فهي صفات الأبوة والمسؤولة في إدارة الأسرة، وتربية الأولاد، واستثمار المال وإنمائه .

٤- النبل وما تحتويها الكلمة من معان وصور للأخلاق الحسنة فهي ليست محصورة على الأنبياء وذرياتهم واتباعهم، فهي مميزات إنسانية متجذرة في الفطرة البشرية، وتتجدد في كل جيل وزمان ومكان إلى قيام الساعة.

٥- ذهب جمهور المفسرين إلى أنه الشيخ الكبير هو النبي شعيب عليه السلام .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط٥ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٨٥ هـ)، دار الفكر، بيروت .

تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى الحسيني، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية .

تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م .

التعريفات، علي بن محمد الشريف الجرجاني(٧٤٠هـ - ٨١٦هـ)، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م

تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي(٧٠٠ -٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: ١٣٧٦ هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١ ، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م .

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، المحقق: أحمد محمد شاكر، (٢٢٤ هـ- ٣١٠ هـ)، مؤسسة الرسالة .

الجامع الصحيح المختصر، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير اليمامة، بيروت - لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٧ م، ط ٣ .

الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١ هـ)، تحقيق: أحمد البردوني و إبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة .

دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، تعريب تحقيق وتعليق: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية .

زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٤ هـ، ط ٣ .

سير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود + الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق ١- د. زكريا عبد المجيد النوقي د. أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٤٢٢ هـ=٢٠٠١ م، ط ١ .

الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤ ، ١٤٠٧ هـ= ١٩٨٧ م .

صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن احمد أبو حاتم التميمي البستي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ٢ ، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م،.

صيد الخاطر، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي البغدادي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط ١، ١٤١٢ هـ= ١٩٩٢ م .

العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي وآخرون دار، مكتبة الهلال، ٨ اجزاء، (بدون تأريخ) .

الفروق اللغوية، الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري أبو هلال، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة - مصر، (بدون تأريخ) .

في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط ٣٧ ، ١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨ م، ٦ أجزاء .

القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، (بدون تأريخ) .

كتاب الأخلاق والسير، أبو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت - لبنان، ١٩٦١ م .

الكليات(معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت: ١٠٩٤هـ)، مؤسسة الرسالة ناشرون،بيروتن ط٢، ١٤١٩هـ= ١٩٩٨م .

لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت: ٧١١ هـ)، دار صادر، بيروت، ط١، عدد الأجزاء: ١٥،(بدون تأريخ) .

مجمع مقاليد العلوم، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي(ت: ٩١١ه)، تحقيق: أ.د. محمد ابراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة - مصر، ط١،(١٤٢٤ هـ- ٢٠٠٤ م)

مسند أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر، (بدون تاريخ) .

معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي(ت: ٥١٠هـ) ،المحقق: وخرج أحاديثه مجموعة من المحدثين،دار طيبة للنشر والتوزيع،ط ٤ ، ١٤١٧ هـ= ١٩٩٧ م.

معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، ط١، عالم الكتب، القاهرة، مصر، (١٤٢٩هـ= ٢٠٠٨م) .

المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى + أحمد الزيات + حامد عبد القادر + محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، عدد الأجزاء: ٢ ، (بدون تأريخ) .

مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الاصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت، ط٤، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م .

موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول ﷺ، إعداد: مجموعة من المشرفين، دار الوسيلة، جدة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ١٢ جزء .

النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، (بدون تأريخ) .